من القصص الإسلامي

جارية البَصرة

للأستاذ صلاح الدين المنجد

كانت الجمال تميس مَيَساناً هادئاً، تحملُ الخليفةَ الرشيدَ إلى الحجّ. وكان لا بُدَّ لها، وقد بلَغت البصرة، من الوقوف بها ليتمتّع الرّكبُ بما فيها من جمال وجلال؛ فقد كانت هادئة أنيقة، تستفيقُ على همس النخيل كأنه وسوسة القُبل، وتنام على دغدغات دِجلة كأنها مُناغاة الأم، وزغردة الوليد. وكان أهلُها، إلى ذلك، من أكثر الناس اقتناء للعاج والديباج، وكان نساؤها مشهورات بالدلال، وبيوتها ضاحكات بالفضة باسمات بالذهب ...، ونهرُها يفيض متدفقاً صخوباً يتساقط في أوله الرُّطَب، ويتمايل على حفافيه النخيلُ والقصب.

ونزل الخليفة، ومعه جعفر بن يحيى، ووراءهما حاشية عريضة من المُلَهّين والمغنين والزُّهّاد.

ولم يَرَ الرشيد أن يتحوّل عن هذه المدينة قبل أن يعلم أحوال الناس فيها؛ فدفع جعفراً إلى الطّواف بها، ليتحسّس أخبارها ثم يعود فيخبره بما سمع وبما رأى.

فلما عاد عشيّة ذلك اليوم قال له الرشيد: « إيه يا جعفر! حدّثني بعجيب ما رأيت ... »

قال جعفر: « لقد طوّفتُ في المدينة يا أمير المؤمنين، فسمعتُ من ناسها ما يشكون وما يرغبون. وكنتُ أعلم كل شيء من غير عناء لتنكري. فلما كنتُ في إحدى الأسواق، أقبل عليّ نخّاس يبيع الجواري والقيان، وهَمَس في أذني أنّ لديه جاريةً مغنيّةً تباع، وأنّ مولاها ممتنع من عَرْضها إلا في داره؛ فتطلّعت نفسي إلى معرفة أمرها، وتاقت لرؤيتها، فمضيتُ معه ... حتى وقف عند باب شاهق يدلّ على نعمة وَرَاء مَطرَقه؛ وإذا شاب حسنُ الوجه، دقيقُ العود، عليه قميص ممزّق، يفتح لنا. فدخلنا إلى دِهليز طويل مظلم ... وانتهينا إلى دار واسعة خراب. فأخرج لنا الفتى من غرفة قطعةً متآكلةً من حصير، ففرشها لنا، وجلسنا عليها، ثم مضى ليُحضر المغنّية، فأخذتُ أفكر في أمر هذه الجارية، وتساءلت لِمَ تعيش في هذه الخرائب؟ ومن تكون ...؟ وما شأن هذا الفتى معها؟ ... وإذا بها تخرج علينا، زهراء غيداء، وعليها القميص الممزّق الذي كان يلبَسه الفتى منذ لحظات. فرأيتها صبيحة الوجه، ميّاسة القد، حلوة العينين، ناهدة الثديين، وأدهشتني براعة جمالها ونضارة جسمها؛ فأمرتها بالجلوس وتقدّمت إليها بالغناء. فضربت على عود ضرباً ما سمعت أرقّ ولا أحلى حلاوة منه، واندفعت تغنّي:

تمّتْ علينا زفرةٌ صاعدهْ وملّني العائدُ والعائدهْ

فلم أسمع يا أمير المؤمنين أشجى ولا أفجع ولا أطرب من غنائها. ثم أخذت تبكي، وذرفت دمعاً هاج حزني وكلّمَ قلبي، وأرسلت آهات ناعمات من صدر ملوّع وقلب مفجّع. ثم سمعنا فجأة بكاء الفتى من الغرفة المجاورة. فقامت الجارية إليه. وطرق آذاننا صوت بكاء محزن، وشهيق أليم؛ ثم سكَنتِ الأصوات حتى حسبنا أنهما ماتا. فعجبنا من أمرهما، وقلت للنخاس: « ويحك! قم فانظر ماذا أصابهما ... » وإذا بالفتى يخرج قائلاً: « عفواً يا سادتي ...! » ثم غلبه البكاء فلم يستطع الكلام. فأشفقتُ عليه وقلت: « ما حالك يا فتى؟ » فبكى. فأعدتُ عليه السؤال وألححتُ في الطّلب، فتحرّك وقال:

« نشأت نشأة فريدة مغمورة بالعطف والدلال. وكان أبي موسراً، أزهرت النعمة في دياره وتدفقت الدنانير عليه. وكنت ألهو في بستان يحيط بالقصر مع هذه الجارية التي ربّتها أمي. فكنا نرتع فوق العشب، ونغوص في الماء، ونتسلق النخيل، ونطلق أنفسنا في لهو الطفولة الحلو. على أني كنت أحسّ بانقباض في صدري إذا ابتعدتْ مني؛ وأشعر بالوحشة تغمرني كلما غابتْ عني. فلما بلغتُ السابعة وبلغَتها، جيء لي بمؤدب يؤدبني، وأُتي لها بمغنية تتخرّج عليها. أما أنا فتوفرت على الأدب ألتقط النوادر، وأحفظ الفرائد، وأروي الأشعار والأحاديث. وأما هي فقد انقطعت إلى الغناء لتمهر في طرائقه وتبرع في أصواته. فلما أورق غصني ورف صباي، ازداد حبها

فى قلبى ؛ وخـطـّبنى وجوه أهل البصرة لبناتهم ، وذاع صيتى فى البيوتات ، وأصبحت أمنية العذارى والفتيات ، ورغـبْن فىّ لفصاحتى وأدبى ووفرة مالى . فأعرضتُ عنهنّ جميعاً وصبوتُ إلى هذه الجارية التى كان الجمال يرتع فى جسمها ، والفتنة تسجو فى عينيها ، فيتحرّق قلبى ويتألم ، ويضؤل جسمى ويرق

لقد كان صوتها ، يا مولاى ، مسكراً ناعماً حلواً . كنت أنتشى فأغمر فمها الحلو الصغير بقبلى . . . أو أجثو أمام قدميها فيزداد طربى . . . لقد كان فى صوتها شىء يداعب الروح لا أدرى كنهه ؛ شىء فيه نعومة وشهوة وحنين . فكانت إذا فرغت من الغناء جلست أمامى لأطربها بالأشعار ، وأضحكها بالنوادر ، وأطرفها بالأحاديث

فلما بلغ بها الغناء مبلغاً بعيداً ، عزمت أمى على بيعها ، وهى لا تدرى ما فى نفسى من وجد وشوق . فقامت الدنيا فى عينى ، وتّجتْ نفسى فى ألوان من الأفعال أقلها الانتحار . ثم قررت أن أصدق أمى خبرى فأخبرتها . فأشفقت علىّ ووهبتْها لى ، وجهزها أبى كما يجهز أهلُ البيوتات بناتهن وجواريهن

ونعمت معها دهراً لهوت بها عن الدنيا وما فيها . وكنت أحب سماع صوتها فى الأماسى والأصابيح تحت ظلال النخيل ، وبين القصب ؛ فكانت تغنينى فأتيه وأغيب . ولكنى وا أسفاه ! لم أصحُ من هدهدات الغناء إلا على نوح النائحات وبكاء الباكيات ؛ فقد مات أبى ، وأنا ما أزال فى ريعان الصبا

وانتقل إلىّ بوفاته ما لا أحصيه من الأموال . على أنى لم أكد أسلو لوعة الفقد الأولى . حتى عاجل الموت أمى . فبكيت وحزنت ، ثم أغوانى الشيطان وقال : مالك وللحزن ! إن شبابك يفنى وعمرك ينقضى ، فانعم ولَذّ بجاريتك . فأسأتُ تدبيرَ الأموال ، وعكفتُ على اللهو والقيان ، فتبلعت نعمتى ، وابتزّت الحسان مالى ، فعشت فى هذه الخرائب كما ترى ؛ بكاء على الماضى وحنين لأيام الهناءة والنعيم

وذرف دمعة ، يا أمير المؤمنين ، وصمت . فقلت له : ثم ماذا ؟ أتمم . . . أتمم . . . ! قال : « وبقيت على ذلك سنتين ، لا نذوق طعم اللحم إلا لماماً . وكانت يا مولاى وفية ، لا تستطيع مفارقتى رغم ما تلاقيه من ضنك العيش ومرارة الإقلال . وكانت تحبنى حباً عنيفاً ، فأدركتنى الشفقة عليها ، وقلت لها : استمعى يا أختاه ! لقد عبست لنا الأيام ، فأصبحنا كما ترين ، وأنت ما تزالين غضة الصبا ، ريانة الشباب ، وأنا آلم لما تكابدينه من البؤس والفقر ، وأعلم أنى تألف منى فارقتك ، ولكنى أوثر أن أراك منعمة هانئة ، فدعينى أعرضك على أصحاب الخليفة ، فلعل واحداً يشتريك فتنعمى معه برغد العيش !

فبكت بكاء كله وله وحنين وقالت : « مالى وللطعام ، مالى وللثياب ، وأنت إلى جانبى . أنا أريدك أنت ، أنت وحدك ، لا أريد مالاً ولا ثياباً . . . ! » فحزنت وقلقت ، ولكنى خرجت سراً إلى هذا النخاس فأطلعته طِلْعَ أمرى ، وأعلمته أنى لا أعرضها إلا فى دارى لئلا تمتهن بالأسواق ويراها السوقة والعوام .

فلما جئتنا الساعة ، بقيت فى الغرفة ، وألبستها ثوبى المزق فما عندى ولا عندها غيره . وجلست أبكى . ولما دخلت علىّ بعد غنائها قالت لى : « ألست مللتنى ، وآثرت فراقى ؟ فلم تبكى ؟ بعد هذا علىّ ! » فقلت لها : « إن فراق نفسى أسهل علىّ من فراقك ، وإنما أردت أن أخلّصك من هذا الشقاء ! » قالت : « ألست أنا راضية بهذا الشقاء ؟ » فاضطربت ، وخرجت إليك يا مولاى لأخبرك أنى عدلت عن البيع ! »

واهتز الرشيد لطرافة الأحدوثة وحلاوة الكلام وقال : « ألا فليكن هكذا المتحابون . . . ! فماذا حدث بعد ذلك يا جعفر ؟ »

قال : « تركتهما يبكيان ، وأرسلت صاحب الشرطة ليبتاعها لى غصباً ! » قال الرشيد : « ويحك ! أهكذا تكون المروءة ؟ كيف تفرق بينهما وتشتت شملهما ؟ تعال يا غلام ، قم يا حماد ثم يا جعفر ، ردوا هذين المحبين إلى رغادة عيشهما وهناءة حبهما . اجمعوا بالوئام ، وأفرحوهما باللقاء والسلام ، وانثروا هذه الآلاف الثلاثة من الدنانير أمامهما ؛ فليس أثوب من جمع المتحابين ! وإن شاءا فاحملوهما إلينا واخلطوهما بحاشيتنا ، فإنهما يستحقان معاشرة الملوك

(دمشق) صموع الديه المجبد